هل يستطيع التصوف

أن يكون منهجاً إيجابياً فى الحياة

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

لحظات فى أفق المعرفة العليا :

لحظات طيبة مباركة مضيئة :

تلك هى اللحظات التى عشتها بقلبى وروحى مع السيد الوزير العالم المؤمن الدكتور حسن عباس زكى .

التقينا فى مكتبه . وكان فى صحبته السيد محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية .

وسبق إلى ذهنى ، صورة رجل الاقتصاد الموفق الناجح المبتكر الذى ملأ وزارته بالحركة الإيجابية المتوثبة المتحررة .

وبجوار هذه الصورة ، أخذت صور أخرى تزاحمها ، هى صورة العالم الصوفى الذى ملأت أحاديثه فى التصوف ، المحافل العلمية ، والصحف اليومية .

ثم ترقرق الحديث بيننا طيباً مشعاً ملهماً ، فأخذت الصور القديمة التى عاشت فى ذهنى عنه كرجل اقتصاد مجدد ، ورجل تصوف فاقه مستنير .

أخذت هذه الصور تتلاشى لتبرز صورة أخرى ، صورة رجل عالم بأوسع مدلولات هذه الكلمة ، عالم ملهم قرأ العلوم المادية فى شتى صورها ، ومختلف ألوانها وفنونها .

ثم قرأ العلوم الدينية الروحية فى كل أفق من آفاقها العالمية .

ثم تذوق ما قرأ ، وعرضه على قلبه ، وعلى روحه وعلى حسه ، وعلى تجربته فخلص له من هذا كله موهبة مبصرة قادرة على أن تجمع فى يدها خيوطاً متعددة ، دون أن يشتبك خيط بخيط .

بل تمضى الخيوط المتعددة الألوان إلى غايتها فى تناسق وتعاون وإبداع ، لتكون فى النهاية نسيجاً فيه روعة الفن المتناسق ، وفيه متانة النسج المحكم .

« . . إن الطاقة العظمى التى لم يدركها العلم هى التى تجذب المتصوف للسعى إليها ليندمج فيها ويحبها ويعشقها ، لأنها خالدة باقية ، والتصوف يريد الخلود الأعظم ، فاتخذ طريق المحبة ، وهى من أسلم السبل وأسهلها وأكثرها خيراً ، وأجداها نفعا ، وأبعدها عن الانحراف ، وأسباب الدمار ، اتخذ طريق الخير والجمال والكمال ، طريق الحب والعشق والفناء الذاتى فى الملأ الأعلى .

وهذه هى سبل القوة التى تجمع الطاقات ، وتدفعها ليتصل بعضها ببعض ، ويعمل كل جزء فيها لخير الجزء الآخر » .

تلك هى فلسفة الدكتور العالم ، بل هذه فلسفة التصوف الكبرى ، جمع الطاقات كافة ليتصل بعضها بعض ، فى تناسق وتآخى ، حتى يعمل كل جزء فيها لخير الجزء الآخر فى غير خصومة أو بغضاء ، أو التواء فى الأهداف والغايات .

ثم يعرض سيادته للتصوف الإيجابى . التصوف الذى يستطيع أن يقدم منهجا عمليا مثاليا للحياة . وخاصة مجتمعنا العربى الناهض إليه ، والدور الكبير الذى تستطيع أن تقوم به مشيخة الطرق الصوفية لتصنع المؤمن الصالح .

وسبيلنا إلى ذلك أن تتطور بالمفاهيم الصوفية لتمشى مع الحياة وتندمج فيها .

فالتصوف ليس عزلة ، والتصوف لا يرضى عن الخمول والاحتجاب ، إنه قوة ملهمة للروح ، وقوة بانية للحياة .

إنه مثالية تصنع الفرد ، كما تصنع الشعوب ، يجب أن تمشى بالمعانى الصوفية الروحية الأخلاقية إلى الجندى فى الميدان وأن نضع فى قلبه مصباحا روحيا ينير له معانى الاستشهاد والفداء والتضحية والموت الذى يهب لصاحبه الخلود والنعيم المقيم .

(البقية على صفحة ٦٧)